مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830

المجلد السابع / العـدد الأول
(ذو القعدة 1444هـ/ جوان 2023م)، ص 291–307

الفلسفة والأسطورة مقاربة بين أصول الفكر الأسطوري و الفكر الفلسفي

Philosophy and myth is an approach between the origins of mythological thought and philosophical thought

د. طالبي امحمد[1]، D. Talbi Mhamed

[1] جامعة الجزائر 2 (أ بو القاسم سعد الله) mhamed.talbi@univ-alger2.dz

المؤلف المرسل: **د/ طالبي امحمد** Talbi Mhamed الإيميل: mhamed.talbi@univ-alger2.dz

تاريخ الارسال: 01 /2023/05 تاريخ القبول: 19 /2023/05

الملخص:

جاءت هذه الدراسة لتتناول واحدة من المواضيع التي ما فتئت تشكل على المشتغلين بالفكر الإنساني الخلاف عموما والفكر الفلسفي على وجه الخصوص؛ وهو موضوع العلاقة بين الفكر الفلسفي عبر مراحله من منابعه الأولى إلى العصور المتأخرة، ولب الدراسة هو التساؤل عن العلاقة بين الفكر الفلسفي والفكر الأسطوري، ومحاولة تتبع الأصول الفكرية للتفلسف منذ بواكيره الأولى على يد أساطين (رواد) الفكر الفلسفي.

وجاء هذا المقال ليشرح أولا مفهوم الأسطورة والخصائص التي تميزها عن غيرها من المواضيع ذات الصلة وصولا على التقاطع بينها وبين الفلسفة في بعض جوانبها، وإلى الاختلاف بينهما في الجوانب الأخرى. وقد تضمنت الدراسة أمثلة عن الأساطير في الحضارات القديمة ومحاولة تلمس أفكارها الفلسفية حول تساؤلات الإنسان حول الكون والحياة والعقائد.

وقد خلصت الدراسة إلى بيان المتفق والمفترق عليه في طبيعة الفكر الفلسفي والفكر الأسطوري ومنه التأكيد على وجود الروابط المشتركة بين أنواع التفكير رغم الاختلاف الجوهري من حيث المنهج والغاية.

الكلمات المفتاحية: الفلسفة، الأسطورة، الفكر الفلسفي، الفكر الأسطوري.

Abstract:

This study came to deal with one of the topics that have been posing controversy among those involved in human thought in general and philosophical thought in particular; It is the subject of the relationship between philosophical thought through its stages from its first sources to the later ages, and the core of the study is the question of the relationship between philosophical thought and mythical thought, and an attempt to trace the intellectual origins of philosophy since its early beginnings at the hands of the masters (pioneers) of philosophical thought.

This article came to explain first the concept of myth and the characteristics that distinguish it from other related topics, leading to the intersection between it and philosophy in some of its aspects, and to the difference between them in other aspects. The study included examples of myths in ancient civilizations and an attempt to find their philosophical ideas about human questions about the universe, life and beliefs.

The study concluded with a statement of what was agreed upon and disagreed with in the nature of philosophical thought and mythological thought, and from it the emphasis on the existence of common links between the types of thinking despite the fundamental difference in terms of method and purpose.

Keywords: Philosophy; myth; philosophical thought; mythical thought.

1. مقدمة:

مما دأب عليه التفكير البشري منذ نشأته الأولى وما تلاها من أحقاب زمنية هو محاولة الإجابة عن تساؤلات الميتافيزيقية التي ما انفكت تثير دهشته واستغرابه، وبهذا الاستفزاز وبهذا القلق نشأت الفلسفة في شكل مجهود تأملي للعقل الإنساني قصد التعرف على الأسباب النهائية، والوصول على المعنى الحقيقي للأشياء إشباعا لفضوله الفطري للمعرفة، ومن ناحية أخرى فإن فعل التفلسف هو تعبير عن حركة الفكر للبحث عن حياة الكون والإنسان وعن الوجود والفناء أو المبدأ والمصير، ولكي يصير الإنسان فيلسوفا عليه أن يدلل على وجهة نظره ويأتي بتفسير عقلي لرأيه يكسبه طابعا إقناعياّ، وكما عليه أن يحيل تجاربه

الجزئية الخاصة إلى تجربة عامة لها معنى الشمولية والثبات على الأقل بالنسبة لقناعته وعندئذ يمكن القول أن هذا الإنسان أصبح فيلسوفا ووظيفة الفيلسوف وفق هذا التصور هو القدرة على امتلاك تصور واضح لحركة الكون والإنسان، وإيجاد الأجوبة لكل تساؤلاته، غير أن هذه الوظيفة لا تقتصر على الفيلسوف فقط، فنفس الوظيفة نجدها عند رجل الأسطورة، إذ لم يبق الإنسان عبر تاريخ فكره السحيق جامدا، ولا كائنا مفعولا به تجري عليه الظواهر دون أن يسعى إلى محاولة تفسيرها وفق ما توفر لديه من أدوات التفكير وآليات التعليل، وهنا يلتقي الفكر الفلسفي مع الفكر الأسطوري، وهناك يمكن أن نطرح التساؤلات التالية: ما هي العلاقة بين الفلسفة والأسطورة؟ وهل يمكن القول أن بدايات التفلسف هي كمال الأسطورة؟ وما هي نقاط الالتقاء ومفاصل الافتراق بين الفكر الأسطوري والفكر الفلسفي؟ هذه الدراسة هي محاولة للإجابة عن هذه التساؤلات.

2. في محاولة المفهوم وتلمس أصول الموضوع:

كغيرها من المواضيع لم تعرف الأسطورة مفهوما واحداً يحدد ماهيتها وتاريخ ظهورها بالتحديد الزمكاني، فقد خاض فيها أهل الاختصاص ومن تشغلهم مثل هذه المواضيع وتشعبوا فيها إلى مذاهب شتى فهي تعني عند البعض قصة خيالية ذات أصل شعبي تمثل فيها قوى الطبيعة بأشخاص يكون لأفعالهم ومغامراتهم معانٍ رمزية، كالأساطير اليونانية التي تفسر حدوث ظواهر الكون والطبيعة بتأثير آلهة متعددة وهي بهذا المفهوم عبارة عن حديث خرافي يفسّر معطيات الواقع الفعلي، كأسطورة العصر الذهبي وأسطورة الجنة المفقودة وإذا ابتعدنا عن هذا المفهوم الشعبي الذي يفسر الطبيعة الفضولية للإنسان ورغبة النفس البشرية في الإجابة عن كل التساؤلات التي تثيرها أفعال الطبيعة تحديدًا وانعكاساتها على حياة البشر، فإنّ الأسطورة قد شغلت أذهان ما يمكن وصفهم بالفئة المتميزة بخيالها الخلاق وبأسلوبها الفتي الأخاذ ممن أوتوا مواهب فطرية، فالأسطورة عند هذه الفئة هي الصورة الشعرية أو الروائية التي تعبر عن أحد المذاهب الفلسفية بأسلوب رمزي يختلط فيها الوهم بالحقيقة، وهو خيال لا يخلو من المتعة البنائية والتفكير المبدع كأسطورة الكهف عند جمهورية أفلاطون أو قصة سلامان وأبسال في فلسفة ابن سينا.[1]

كما اتخذت هذه الأسطورة كأداة للتأثير الفعلي على عواطف الجموع لتحقيق أهداف تتفق مع طموحات الجمهور من أجل التغيير نحو ال"الأفضل"، وهي بهذا المعنى تعبر عن صورة المستقبل الوهمي الذي يعبّر عن عواطف الناس وينفع في حملهم على إدامة الفعل، نلمس هذه الصورة للأسطورة في كتاب "تأملات العنف" لجورج سبوريل مثل لذلك قوله: إذا بالغت في الكلام عن التمرد والعصيان ولم يكن لديك أسطورة تحرك بها قلوب الناس، لم تستطع أن تحملهم على الثورة.[2]

وإذا كانت صورة الأسطورة بهذين المعنيين قد بدأت تتضح باتجاهها نحو عالم الخيال و"الإبداع" فأن يمكن القول هذا أن قصارى القول هو أن الأساطير تتضمن وصفًا لأفعال الآلهة، أو هي للحوادث الخارقة، وهي تختلف باختلاف الأمم، إذ لكل أمة أساطيرها، وكل شعب أو مِلَّةٍ أو نِحْلِة خرافاتها الموضوعة للتعليم أو للتسلية، وقد قيل: إن الأسطورة هي التعبير عن الحقيقة بلغة الرمز والمجاز، ويطلق على البحث في أساطير الأولين من يونان ورومان وفرس وهنود وغيرهم من الأمم والشعوب بلعم الأساطير Mythologie والعقل الأسطوري هو العقل المخرف Mythomanie الذي يُقلب اختراعات الخيال الوهمي إلى حقائق واقعية.[3]

ومنه فالأسطورة كما يقول أليكسي لوسيف ليست مفهوماً مثالياً، ولا هي فكرة أو مفهوم، الأسطورة هي الحياة ذاتها، وبالنسبة للذات الأسطورية هي حياة حقيقية مع كل ما فيها مت آمال، ومخاوف، وترقبات، وإحباطات، ومع كل ما فيها من تفاصيل يومية واقعية ومن مصالح شخصية، والأسطورة – بناءً على استقراء بعض الأمثلة الواقعية من حياة الناس– ليست وجودًا مثالياً إنما هي واقع معيش مادي ملموس حياتياً، واقع جسدي حتى حيوانية الجسد.[4]

3. الأسطورة والحضارات الإنسانية:

مما يتفق عليه المشتغلون بتاريخ الفكر والحضارة هو أنه ليس هناك فاصل زمني محدد بين أنماط التفكير الإنساني، وكل محاولة في هذا الاتجاه لا يعدو أن يكون جهداً فكرياً لهذا الفيلسوف وذلك من خلال النظريات التي تناولت تطور الفكر وهي نظريات يقبلها العقل لانسجامها المنطقي وليس بالضرورة يطابقها الواقع إذ لا يمكن التحقق التجريبي من صدقها أو كذبها لأنها تعبر عن ماضٍ سحيق من ذلك نظرية قانون

الحالات الثلاث لزعيم النزعة الوضعية في العصر الحديث "أوعست كونت" الذي جعل الفكر الأسطوري الديني الخرافي أولى إرهاصات التفكير الإنساني معبّرا عن غريزة التفكير لإشباع الفضول الفطري، وهي (الأسطورة)

ضرورية للتفكير الفلسفي الميتافيزيقي (الغيبي) الذي يسبق التفكير العلمي الوضعي ويشكل الفكر الأسطوري أساس كل تفكير بشري إلى جانب التفكير الثيوقراطي الذي لا يخلو هذا الآخر من العناصر الأسطورية بل الفكر الديني نفسه قائم على تعدد الآلهة البشرية والسماوية وهو عين الأسطورة، ولا خلاف في ذلك بين الأمم الشرقية والأمة اليونانية وبلاد الإغريق على وجه الشمول، فإذا ولينا نظرتنا شطر الأمم الشرقية القديمة المصرية الفرعونية منها أو الهندية والفارسية فإننا ندرك حقيقة التفكير عند هذه الشعوب فقد مزجت بين الإبتكارات العلمية منم رياضيات وكيمياء، وفلك وفن وشعر إلّا أن كل ذلك كان ممزوجا بالأساطير الشعبية قبل أن تتميز بأصالة لا تنكر تركت آثاراً واضحة في التفكير اليوناني –وعن طريق هذا التفكير– في التفكير الإنساني كله.[5] كان الشغل الشاغل لحكماء مصر القدامى هو الاعتناء بالنفس البشرية والعمل على تطهيرها وإعدادها للإنتقال من دار الفناء إلى دار البقاء، ولم يكن لهم "هم" التفكير النظري البحث والعمل العقلي والذي يكون رائده التفلسف للوصول إلى الحقيقة المجردة ليعني لهم شيئا بل وضعوه المقام الثاني، إذ لم يكن في المرتبة الثالثة والأخيرة في سلّم اهتماماتهم، وبذلك لم يتمكنوا من إرساء أسس لأي مذهب فلسفي بالمعنى السحرية والقصص الذي تردى عن خوارق الآلهة تون قد ساهمت في إشباه فضولهم الفطري عن الحقيقة.

وبعبارة أخرى، يمكن القول أن النصوص العظيمة التي أفصح فيها الحكماء المصريون القدامى عن سمو تصورهم للأخلاق وخلود النفس والعقاب في الحياة الثانية تبدو على حدة قولا لبعض "كجزيرة صغيرة من العقائد الخالصة جداً تضيع في خضم واسع من النصوص السحرية"[6] ولم يبتعد نمط التفكير عند قدماء الإيرانيين عن هذ المضمون المصري، فقد راحوا يختلقون آلهة أبلسوها هالة القداسة ونسبوا لها الخوارق ولكن وضعوا لها مسحة فكرية تبدو مبرَّرة منطقيا لا واقعيا، وقد لجؤوا إلى الأسطورة لأن لها تأثير سحري

في مخيلات الشعوب آنذاك التي لم تؤت حظّا من التفلسف الحقيقي ولا المبادئ العلمية المحققة تجريبيا، فإذا كان المصريون القدامى قد فشلوا في الوصول إلى عبادة إله واحد رغم الجهود الصادقة التي بذلوها طيلة سنين في هذا السبيل فإن الديانة الإيرانية القديمة المبنية على الأساطير هي الأخرى، قد رسا تفكيرهم عند الإيمان بوجود إلهين قديمين إليهما يعزى تدبير العالم هما: "أهرامزدا" (Ahuramazda) إله الخير وسبب النظام في هذا العالم والمسؤول عن إقرار العدالة ومحاسبة النفوس بعد الموت عما اجترحت من السيئات في هذه الحياة و"أهريمان" "Ahriman" إله الشر والمرض والموت وملك الشياطين.

وليس هذا التفكير الإيراني القديم يجمع بين الاعتقاد وحياة الناس اليومية وهي بالنهاية نظرة إلى الأخلاق بأبعاد عقائدية دينية، فاستقامة الإنسان في سلوكه اليومي تحدده نظرته الميتافيزيقية بل بنقل الميثولوجية للكون والانسان، فالخير والشر والطهر والدناسة والجنة والنار هو نتيجة للصراع الابري بين هذين الإلهين "أهرامزدا" و"أهريمان" اللذان يملكان قوى إلهية متكافئة وأن الإنسان هو المرجع لسيادة أحدهما على الأخر، فكلما ازداد الإنسان من فعل الخير والعمل على تحقيق النظام ونشر العدالة في الأرض ازدادت قوة "أهرامزدا" وبالنتيجة ضعف قوة "أهريمان" وبالتالي سيادة الخير في المجتمع ليتمكن الإنسان من السعادة التي هي مطلب كل إنسان وغايته، وكلما إنساق الإنسان وراء نزواته وارتكاب الموبقات كان ذلك سبباً في انتشار الأمراض وكثرة الموت لأن هذه الأعمال تزيد في قوة "أهريمان" وبالتالي سيادة الشر في الأرض، هذا هو لب المذهب الديني والعقائدي الذي يعرضه الكتاب المقدس عند الإيرانيين القدامى "الزند أفستا" (Azend Avesta).

إذا فالأخلاق تنبثق من هذه الثنائية، فواجب الإنسان أن بفعل الفضيلة ويبتعد عن الرذيلة ليجذب نفسه ومجتمعه سخط إله الشر وهو بذلك يعمل على انتصار إله الخير على إله الشر.[7]

4. في محاولة المفهوم وتلمس أصول الموضوع:

كغريها من المواضيع لم تعرف الأسطورة مفهوما واحداً يحدد ماهيتها وتاريخ ظهورها بالتحديد الزمكاني، فقد خاض فيها أهل الاختصاص ومن تشغلهم مثل هذه المواضيع وتشعبوا فيها إلى مذاهب شتى فهي تعني عند البعض قصة خيالية ذات أصل شعبي تمثل فيها قوى الطبيعة بأشخاص يكون لأفعالهم ومغامراتهم

معانٍ رمزية، كالأساطير اليونانية التي تفسر حدوث ظواهر الكون والطبيعة بتأثير آلهة متعددة وهي بهذا المفهوم عبارة عن حديث خرافي يفسّر معطيات الواقع الفعلي، كأسطورة العصر الذهبي وأسطورة الجنة المفقودة وإذا ابتعدنا عن هذا المفهوم الشعبي الذي يفسر الطبيعة الفضولية للإنسان ورغبة النفس البشرية في الإجابة عن كل التساؤلات التي تثيرها أفعال الطبيعة تحديدًا وانعكاساتها على حياة البشر، فإنّ الأسطورة قد شغلت أذهان ما يمكن وصفهم بالفئة المتميزة بخيالها الخلاق وبأسلوبها الفتي الأخاذ ممن أوتوا مواهب فطرية، فالأسطورة عند هذه الفئة هي الصورة الشعرية أو الروائية التي تعبر عن أحد المذاهب الفلسفية بأسلوب رمزي يختلط فيها الوهم بالحقيقة، وهو خيال لا يخلو من المتعة البنائية والتفكير المبدع كأسطورة الكهف عند جمهورية أفلاطون أو قصة سلامان وأبسال في فلسفة ابن سينا.[8]

كما اتخذت هذه الأسطورة كأداة للتأثير الفعلي على عواطف الجموع لتحقيق أهداف تتفق مع طموحات الجمهور من أجل التغيير نحو ال"الأفضل"، وهي بهذا المعنى تعبر عن صورة المستقبل الوهمي الذي يعبّر عن عواطف الناس وينفع في حملهم على إدامة الفعل، نلمس هذه الصورة للأسطورة في كتاب "تأملات العنف" لجورج سبوريل مثل لذلك قوله: إذا بالغت في الكلام عن التمرد والعصيان ولم يكن لديك أسطورة تحرك بها قلوب الناس، لم تستطع أن تحملهم على الثورة.[9]

وإذا كانت صورة الأسطورة بهذين المعنيين قد بدأت تتضح باتجاهها نحو عالم الخيال و"الإبداع" فأن يمكن القول هذا أن قصارى القول هو أن الأساطير تتضمن وصفًا لأفعال الآلهة، أو هي للحوادث الخارقة، وهي تختلف باختلاف الأمم، إذ لكل أمة أساطيرها، وكل شعب أو مِلَّةٍ أو نِحْلِة خرافاتها الموضوعة للتعليم أو للتسلية، وقد قيل: إن الأسطورة هي التعبير عن الحقيقة بلغة الرمز والمجاز، ويطلق على البحث في أساطير الأولين من يونان ورومان وفرس وهنود وغيرهم من الأمم والشعوب بلعم الأساطير Mythologie والعقل الأسطوري هو العقل المخرف Mythomanie الذي يُقلب اختراعات الخيال الوهمي إلى حقائق واقعية.[10]

ومنه فالأسطورة كما يقول أليكسي لوسيف ليست مفهوماً مثالياً، ولا هي فكرة أو مفهوم، الأسطورة هي الحياة ذاتها، وبالنسبة للذات الأسطورية هي حياة حقيقية مع كل ما فيها مت آمال، ومخاوف، وترقبات، وإحباطات، ومع كل ما فيها من تفاصيل يومية واقعية ومن مصالح شخصية، والأسطورة – بناءً على استقراء بعض الأمثلة الواقعية من حياة الناس– ليست وجودًا مثالياً إنما هي واقع معيش مادي ملموس حياتياً، واقع جسدي حتى حيوانية الجسد.[11]

5. الأسطورة والحضارات الإنسانية:

مما يتفق عليه المشتغلون بتاريخ الفكر والحضارة هو أنه ليس هناك فاصل زمني محدد بين أنماط التفكير الإنساني، وكل محاولة في هذا الاتجاه لا يعدو أن يكون جهداً فكرياً لهذا الفيلسوف وذلك من خلال النظريات التي تناولت تطور الفكر وهي نظريات يقبلها العقل لانسجامها المنطقي وليس بالضرورة يطابقها الواقع إذ لا يمكن التحقق التجريبي من صدقها أو كذبها لأنها تعبر عن ماضٍ سحيق من ذلك نظرية قانون الحالات الثلاث لزعيم النزعة الوضعية في العصر الحديث "أوعست كونت" الذي جعل الفكر الأسطوري الديني الخرافي أولى إرهاصات التفكير الإنساني معبّرا عن غريزة التفكير لإشباع الفضول الفطري، وهي (الأسطورة).

ضرورية للتفكير الفلسفي الميتافيزيقي (الغيبي) الذي يسبق التفكير العلمي الوضعي ويشكل الفكر الأسطوري أساس كل تفكير بشري إلى جانب التفكير الثيوقراطي الذي لا يخلو هذا الآخر من العناصر الأسطورية بل الفكر الديني نفسه قائم على تعدد الآلهة البشرية والسماوية وهو عين الأسطورة، ولا خلاف في ذلك بين الأمم الشرقية والأمة اليونانية وبلاد الإغريق على وجه الشمول، فإذا ولينا نظرتنا شطر الأمم الشرقية القديمة المصرية الفرعونية منها أو الهندية والفارسية فإننا ندرك حقيقة التفكير عند هذه الشعوب فقد مزجت بين الإبتكارات العلمية منم رياضيات وكيمياء، وفلك وفن وشعر إلّا أن كل ذلك كان ممزوجا بالأساطير الشعبية قبل أن تتميز بأصالة لا تنكر تركت آثاراً واضحة في التفكير اليوناني –وعن طريق هذا التفكير– في التفكير الإنساني كله.[12] كان الشغل الشاغل لحكماء مصر القدامى هو الاعتناء بالنفس البشرية والعمل على تطهيرها وإعدادها للانتقال من دار الفناء إلى دار البقاء، ولم يكن لهم "هم" التفكير

النظري البحث والعمل العقلي والذي يكون رائده التفلسف للوصول إلى الحقيقة المجردة ليعني لهم شيئا بل وضعوه المقام الثاني، إذ لم يكن في المرتبة الثالثة والأخيرة في سلّم اهتماماتهم، وبذلك لم يتمكنوا من إرساء أسس لأي مذهب فلسفي بالمعنى السحرية والقصص الذي تردى عن خوارق الآلهة تون قد ساهمت في إشباه فضولهم الفطري عن الحقيقة.

وبعبارة أخرى، يمكن القول أن النصوص العظيمة التي أفصح فيها الحكماء المصريون القدامى عن سمو تصورهم للأخلاق وخلود النفس والعقاب في الحياة الثانية تبدو على حدة قولا لبعض "كجزيرة صغيرة من العقائد الخالصة جداً تضيع في خضم واسع من النصوص السحرية"[13] ولم يبتعد نمط التفكير عند قدماء الإيرانيين عن هذ المضمون المصري، فقد راحوا يختلقون آلهة ألبسوها هالة القداسة ونسبوا لها الخوارق ولكن وضعوا لها مسحة فكرية تبدو مبرَّرة منطقيا لا واقعيا، وقد لجؤوا إلى الأسطورة لأن لها تأثير سحري في مخيلات الشعوب آنذاك التي لم تؤت حظّا من التفلسف الحقيقي ولا المبادئ العلمية المحققة تجريبيا، فإذا كان المصريون القدامى قد فشلوا في الوصول إلى عبادة إله واحد رغم الجهود الصادقة التي بذلوها طيلة سنين في هذا السبيل فإن الديانة الإيرانية القديمة المبنية على الأساطير هي الأخرى، قد رسا تفكيرهم عند الإيمان بوجود إلهين قديمين إليهما يعزى تدبير العالم هما: "أهرامزدا" (Ahuramazda) إله الخير وسبب النظام في هذا العالم والمسؤول عن إقرار العدالة ومحاسبة النفوس بعد الموت عما اجترحت من السيئات في هذه الحياة و"أهريمان" "Ahriman" إله الشر والمرض والموت وملك الشياطين.

وليس هذا التفكير الإيراني القديم يجمع بين الاعتقاد وحياة الناس اليومية وهي بالنهاية نظرة إلى الأخلاق بأبعاد عقائدية دينية، فاستقامة الإنسان في سلوكه اليومي تحدده نظرته الميتافيزيقية بل بنقل الميثولوجية للكون والانسان، فالخير والشر والطهر والدناسة والجنة والنار هو نتيجة للصراع الابري بين هذين الإلهين "أهرامزدا" و"أهريمان" اللذان يملكان قوى إلهية متكافئة وأن الإنسان هو المرجع لسيادة أحدهما على الأخر، فكلما ازداد الإنسان من فعل الخير والعمل على تحقيق النظام ونشر العدالة في الأرض ازدادت قوة "أهرامزدا" وبالنتيجة ضعف قوة "أهريمان" وبالتالي سيادة الخير في المجتمع ليتمكن الإنسان من

السعادة التي هي مطلب كل إنسان وغايته، وكلما إنساق الإنسان وراء نزواته وارتكاب الموبقات كان ذلك سبباً في انتشار الأمراض وكثرة الموت لأن هذه الأعمال تزيد في قوة "أهريمان" وبالتالي سيادة الشر في الأرض، هذا هو لب المذهب الديني والعقائدي الذي يعرضه الكتاب المقدس عند الإيرانيين القدامى "الزند أفستا" (Azend Avesta).

إذا فالأخلاق تنبثق من هذه الثنائية، فواجب الإنسان أن بفعل الفضيلة ويبتعد عن الرذيلة ليجذب نفسه ومجتمعه سخط إله الشر وهو بذلك يعمل على انتصار إله الخير على إله الشر.[14]

6. الأسطورة والصبغة العاطفية:

الأسطورة وليدة العاطفة، فكل ما يُرى أو يحس مُحاط بجو خاص، جو من الفرح أو الحزن أو العذاب، ففي الإدراك الأسطوري لا يستطيع أن تتحدث عن الأشياء باعتبارها جامدة أو محايدة، بل عليك أن تُصفي مشاعرك على ما هو لك، فتكسب الأشياء الموجودة في عالمك شيئا من داخلك، وهكذا يتحقق التواصل بينك وبينها، وينزوي شعورك بالاغتراب تجاهها.

وإذا كانت هناك بعض المحاولات التي قد مالت إلى تركيز انتباهها على البناء العقلي المنطقي للأسطورة وحدة متجاهلة بذلك البعص العاطفي الذاتي لها، فإننا نرى أن التأكيد على أهمية ذلك الجانب لا يتعارض مع طريقة إدراك الأسطورة أو منحى اتجاهها العاطفي في النظرة إلى الأشياء.

وفي ضوء هذا المنحى العاطفي للإدراك الأسطوري يمكن القول بأنه يتسم أيضاً بنظرته الجمالية للأشياء، إذ لما كان البعد الذاتي العاطفي من أبرز أبعاد الإدراك الأسطوري جاز القول بأن عالم الأسطورة ليس بعيدًا عن عالم الفن.

ومن جهة أخرى نلاحظ أن الأسطورة أيًا كان مضمونها فإنها تقدم في قالب فني جمالي يجعل النفس تستغرق في مضمون القصة الأسطورة بحيث يصعب معه التمييز بين المجالين من خلال ما تتسم به الأسطورة من قدسية.

يمكن القول أن الفكر الأسطوري يميل إلى القطعية (الدوغماتية) إذ لما كانت الحقائق التي تتضمنها الأسطورة أشبه ما تكون بالحقائق المقدسة، فإنها تصبح على هذا النحو من الاعتقاد تشكل مجموعة من

المعتقدات الجازمة الصارمة التي لا تقل أي جدل ولا تقبل فتح أي نقاش في مضمونها وحتى في تشكلها. هذه الصفة الدوغماتية للفكر الأسطوري تجعله إذن خارج النطاق الزماني وخارج نطاق الشك والريبة مما يجعلها في مقابل الفلسفة اللاإرادية التي يمكن التماس خيوطها في لا أدرية سقراط واللاأدرية المطلقة للشباك، وأيضا النزعة الشكية الديكارتية.

وإذن، من خلال عرضنا لطبيعة الفكر الأسطوري، يمكن القول أن عالم الأسطورة هو عالم أقرب ما يكون إلى عالم المحرمات والواجبات منه إلى الحياة الإنسانية التي تتضمن إمتلاك الحقوق وإدراك الواجبات لتحقيق العدالة، وليس أدل على هذا المفهوم من ظهور فكرة أو دوغماتية"التابو" التي أخذت عدّة أشكال امتزجت فيها الأسطورة بالدين، فالتابو قد يكون رمزاً مقدساً للقبيلة ليصبح "صنما" "معبودا" وهنا تتقاطع الأسطورة مع الدين وعليه ففي ضوء هذه الفكرة تكون الحياة الإنسانية واقعة تحت ضغط مستمر ومحصورة في دائرة منبثقة من متطلبات الأوامر والنواهي ومن المحرمات والمحلات ونتيجة لقطيعة الفكر الأسطوري وقديسية المرتبطة بنزعته الدينية فإنه يصبح بعيداً عن روح الشك، بل أن إثارة حوله يكاد يعني مروقاً عن جملة من المعتقدات التي يدين لها بالولاء، ومن هذا المنطق يبدو وكأنه يقع في موقع التصادم مع صميم الفكر العلمي والفلسفي.

ومن قيل أن سقراط أحكم أهل اليونان، وفسر سقراط ذلك على أنه استحسان للاأدرية التي كانت نقطة البداية لفلسفة "لا أعرف سوى شيئاً واحداً وهو أنني لا أعرف شيئاً"، فالفلسفة الحقة تبدأ عندما يبدأ الإنسان يتعلم الشك، وخصوصا الشك في الأفكار والبديهيات والحقائق المقررة والمتعارف عليها (ص33) والتفكير العلمي الفعال- كما لاحظ فرنسيس يتكون- يبدأ الشك لا من التسليم واليقين، فنحن إذ بدأنا في تأملاتنا باليقين انتهينا إلى الشك، وإذا بدأنا بالشك وتحملناه في صبر فسوف تنتهي إلى اليقين، وهن هنا اتجه يتكون في الجانب السلبي من منهجه إلى طرح العديد من الأوهام أو الأباطيل التي تعوق معرفتنا بالطبيعة باعتبارها تؤدي بنا إلى الثقة المطلقة في إدراكاتنا.[15]

ولعل هذا أيضا ما دفع "ديكارت" إلى اتخاذ نتهج الشك سبيلاً للوصول إلى اليقين، ولا غر إن وجدنا الفيلسوف البراغماتي شارلز سوندرز بيرس (1839– 1914) في مقال له بعنوان "تثبيت الإعتقاد" He Fixation of Belief يتناول منهج البحث العلمي، باعتباره يبدأ من الشك، وهي حالة من عدم الرضا والشعور بالتوتر تدفعنا إلى محاولة الوصول إلى اعتقاد صحيح نطمئن عليه، ومن حقائقنا غايتنا توقف البحث العلمي، وأصبحنا أحرارًا في أفعالنا وعلى هذا النحو يستهدف البحث العلمي مساعدتنا على أن نتجاوز حالة الشك إلى حالة الاعتقاد.[16]

والحق أن الشك يتفق مع طبيعة الروح الفلسفية التي لا تقنع بالعالم في ضوء صورته الفعلية الراهنة، بل تميل دائما إل ى طرح تساؤلات وإثارة الشكوك وإذا لنا نسلم مع البعض بأن الفكر الأسطوري لا يعني انعدام التأمل كلية، بل أن التأمل مع البعض قد يحدث ضمن إطار الفكر الأسطوري، في ضوء التساؤلات التي تثار حول مشكلة الأصل والغاية وغيرها من المشكلات المرتبطة بعالم الفلسفة مما يعني صعوبة إصدار أحكام عامة حول انفصال الفكر الأسطوري كلية عن الفكر الفلسفي إذا كان من الممكن التسليم بذلك إلّا أنه يمكن القول بأن ما ينتهي إليه الفكر الأسطوري يصبح بمثابة عقائد حازمةلا تقبل الشك أو أيه محاولة لإثارة الجدل والنقاش أو محاولة البرهنة على صحتها.

إن الحقائق الأسطورية مثلما كانت خارجة عن دائرة الشك كانت أيضا خارجة عن التحليل، فلم يكن الخيال الأسطوري قادر على الرؤية الأسطورية الكلية إلى عناصرها.[17]

إن اعتقاد الفيلسوف بأن مذهبه يمثل التكامل النهائي للمعرفة الإنسانية (المذاهب الفلسفية ونظرية المعرفة) والمركب الأول والأخير للفكر الفلسفي يعني أنه أحال فكرة الفلسفي إلى حقيقة تلزم الاعتقاد فيها، لا تتغير ولا تتبدل على مر العصور وباختصار يكون الفيلسوف بذلك قد أحال الفلسفة إلى تقليد أسطوري بمثابة خارج دائرة الزمان، ولا غزو بعد ذلك إن وجدنا دعاة الوضعية المنطقية يشنون أعنف هجوم على النزعة التركيبية في الفلسفة، بل ويتجه بعضهم صراحة إلى التوحيد بين الفلسفة بمعناها التقليدي وبين الأسطورة.[18]

ومن هنا يمكن القول أن الفكر الأسطوري في أساسه ومبدئه فكر كلاسيكي تقليدي يرمي بجذوره إلى الماضي السحيق وهو بهذه الطبيعة يسمح لنفسه بارتداء حلة القداسة ومن ثمّ الثبات المتجذّر فيه ولا يجوز التشكيك فيه، بل أن أي محاولة أو مجرّد الرغبة في إثارة الشك حوله هو بمثابة الانتهاك لحرمته وقاسيته لأنه في العرف الأسطوري أو بالأحرى عند الإنسان الأسطوري (الذي يؤمن بالأسطورة وبقدسيتها) لا شيء أقدس من قداسة الماضي الذي يمنح الأشياء كلها قيمة ورفعة واستحقاقها دينيا وأخلاقياً وهما لب القداسة والسلطة في الوقت نفسه.

ولكي تحتفظ الأسطورة بهذه المكانة وبهذه الرفعة والسمو لا بد أن يبقى النظام تاماً بشكل واحد لا يتبدل ولا يتحول، بل أن أي محاولة لتغييره ولو بالشكل اليسير فإنه يصيب هذا النظام بخلل يؤدي به إلى كارثة في الفكر الأسطوري بناء الكلمة السحرية أو الشعيرة الدينية سيقضي على سلطانها و"جبروتها.[19]

وهنا يبدو الوعي الأسطوري في موقع التعارض مع كل نزعة تاريخية تؤمن بالتطور، ولما كان الفكر الأسطوري بطبيعته فكر مجند ثابت فوق الزمان والمكان فهو لا يفرق بين الماضي المستقبل أو بين ما كان وما سيكون، ومن ثم فهو يتعارض مع صيرورة التاريخ الذي يمثل نسقاً مفتوحاً[20] ومرة أخرى تجدر الإشارة إلى تكرار فكرة الصيرورة الفكرية الخلاقة التي تلازم الفكر العلمي والفكر الفلاسفي الذي ينبغي أن ينطلق من الواقع الإنساني ومشكلاته الحياتية وإليه يرتد هذا التفكير ونتائجه، فالوعي الإنساني لا يمكنه أن يظل ثابتا حيث أن طبيعته تقتضي التغير والتجدد الخلاق باعتباره رمز التكامل الإنساني والقيم الدائمة وعلى هذا النحو تتكشف طبيعته الديناميكية، إذ هو في تغير دائم، فعلى العكس من ذلك، فهو ليس مجرد واقعة جاهزة الصنع بقدر ما هو بمثابة استفسار أو وضع للسؤال، فإنسان ما بعد الأسطورة ما يفتأ بطرح على نفسه السؤال تلو الآخر عندما يجد نفسه في مواجهة صريحة مع العامل الذي يعيش فيه ويثير دهشته واستغرابه فيسأل نفسه: هل عليه أن يقبل هذا الكون ويخضع لحمايته كما هي عليه أم أنّه يحاول أولا سبر أغواره وتلمس أسبابه وقوانينه من أجل السيطرة عليه في نهاية المطاف؟ وبديهي أن قبول العالم كما هو

والخضوع لظواهره يعني بالدرجة الأولى تجمد نشاط الوعي وتحوله بالتالي إلى مجرّد موضوع أو شيء من الأشياء وليس باعتباره السمة للميزة للإنسان وحده مهمته الأساسية والجوهرية هي معرفة حقيقة الوجود والكون وكل ما يوجد فيه، ومن هما نسترشد بما ذهب إليه أساطين الفلسفة اليونانية من أن الإنسان الواعي لا يرضى بالأمر الواقع ولا يستكين إلى التفكير من أجل التغيير، ومنه يمكن القول بل نؤكد القول أن الدهشة هي أصل الفلسفة، فأفلاطون يذهب في محاورة ثياتيتوس إلى القول "هذا الإنفعالأو العاطفة– يعني بذلك الدهشة– هو ما يميّز الفيلسوف حقّا، وليس للفلسفة أصل سواه،[21] والفكرة ذاتها تماهى إليها تلميذه أرسطو حيث يرى أنه "من خلال الدّهشة بدأ الناس الآن وفي أول الأمر يتفلسون"[22] غير أن هذه الخاصية الإنسانية وهي الدّهشة والإستغراب غير الفلسفة وإن شئنا قولنا أن الفيلسوف الذي أدهشته الطبيعة بظواهرها المريبة، وعندما بدأ يبحث عن أصل الأشياء ومحركات الطبيعة أولا ث نزعات الإنسان وميوله لم يجد أمامه أصلاً تاريخياً، وإنما وجد، أصلا أسطوريًا، وقد اضطر إلى أن يفسر العالم من حوله إلى الماضي الأسطوري حتى يتمكن من فهمه، وهكذا نجد في الأسطورة المحاولات الأولى للإنسان الواعي لتبين المسلسل الزمني للأشياء والأحداث أي لإيجاد علم كوني وعلم الأنساب للآلهة والناس. والواقع أنّ الفكر الفلسفي اليوناني بدأ بالأساطير فأولى إرهاصاته تمثلت في أشعار هاسيروس وهو أول عمل أدبي في تاريخ اليونان، وهي أولى الخطوات التمهيدية في الطريق إلى الفلسفة، وقد ظهرت في "أيونية" المسرح الأول لظهور الفلسفة، وكان هوميروس ينشد أشعاره في بلاط أمرائهم، وكان يوجه عبارات التعظم والتمجيد للآلهة، ولا أدل على تأثير الفكر الأسطوري في البدايات الفلسفية اليونانية من الإلياذة والأوديسا التي ظلت لقرون طويلة أساس التربية والتعليم اليونانيين بل قد سميت هاتان القصيدتان بـ" إنجيل اليونان" لقداستها وما تضمنته من قيم إنسانية وأخلاقية وفكرية سامية، بالإضافة إلى تمجيد الشجاعة والتعبير الخارق عند اليونانيين.[23] وقد افتتن اليونانيين بالإلياذة وهي قصة حرب إلى الحد الذي جعل الرجل العادي كما المثقف يحفظ مطلها وكثيراً من فصولها عن ظهر قلب، وقد أشار أفلاطون في محاورة "إيونIon" إلى حرب "طراودة" التي دامت عشر سنين كاملة لكنه اكتفى بلمس الجانب المأساوي فيها حيث عبّر عن إدراكه المليء بالحزن والأسى حيث يرى أن عراكاً بين رجلين قد جذب لكثيرين غيرهما العذاب والموت والعار،

وهكذا تحقق خطة "زيوس" كما يقول أفلاطون، وهو يعني بخطة "زيوس" أن كل ما حدث في هذه الحرب لم يكن نتيجة للمصادفة العمياء، بل كان صادراً عن طبيعة الأشياء ذاتها أي أن ثمّة قانوناً وضرورة وراء وقوع الأحداث، وأن هناك وحدة بين الأشياء وأن الحوادث لها أسبابها ونتائجها وأنه يجب التسليم بوجود قوانين خلقية[24] وهذه الأفكار هي بمثابة الخطوات الرصينة لنشأة الفلسفة مع أحد اقطاب الفلسفة اليونانية، ولا غرابة في ذلك فإنّ نظرية المثل عند أفلاطون قائمة على أسطورة الكهف [25] القائمة على وجود عالمين: أحدهما علوي خالد وهو عالم الأرواح والأفكار الخالدة، والثاني سفلي فانٍ وهو عالم الظواهر والأشياء، الأول حقائقه مطلقة وغير قابلة للفساد، والثاني حقائقه نسبية وقابلة للفساد. وتعدّ هذه الأفكار الاسطورية خير تمهيد للفلسفة في نشأتها الأولى.

إذا كانت الأسطورة فوق التاريخ والصيرورة التاريخية باعتبارها ثابتة تحمل صفة القداسة فإنها تحكم على نفسها بالجمود وهذا مخالف لطبيعة الأشياء ومنطق التفكير العلمي، وكذلك الأمر بالنسبة للفلسفة، فإذا اعتقد الفيلسوف أنه فوق السؤال وأن مذهبه خارج الزمان فإنه يستحيل إلى فكر أسطوري.

7. خاتمة:

بين الفكر الأسطوري والفكر الفلسفي نقاط للتلاقي وأخرى للافتراق، فمن حيث النشأة لا يمكن إنكار دور الأسطورة في نشأة الفلسفة الأولى، فلولا أشعار هوميروس في الإلياذة لما ظهرت بواكير الأفكار الفلسفية، وإذا كانت الأساطير قد نشأت نتيجة محاولة الناس تفسير حدوث الظواهر الطبيعية التي عجزوا عن فهمها، والتي ما فتئت تثير دهشتهم واستغرابهم مما يحدث في الكون والإنسان، فإن ذات الأسباب هي التي دفعت إلى نشأة الفلسفة حسب أفلاطون وأرسطو، فلولا الدهشة والاستغراب اللّذان حرّكا الفضول الإنساني لما نشأ التفلسف ولما ظهرت المذاهب الفلسفية، والحكم نفسه على طبيعة الفلسفة والأسطورة، فلو اعتبر الفلاسفة أن أفكارهم الفلسفية فوق الزمان والمكان فهي بالتالي خارج إطار النقد والشك، فلا فرق عندئذٍ بين المذاهب الفلسفية والأفكار الأسطورية لأنه عند ذلك تحكم على نفسها بالجمود، لكن الفلسفة ليست حركة إلى الخلف ورفضا وتجاهلا لضرورة الزمان، وفي الوقت نفسه ليست تأكيد لسلطان

وخضوعا لمقتضيات الضرورة والإجبار، وإنما هي بكل استقلالية دائما تنزع إلى الجدة والطرافة وبعث إبداعي يتجاوز عالم المعطيات الفلسفية، فالفيلسوف الحقيقي هو المثقف الحقيقي الذي يتجاوز – بإبداعه وبعد نظره وعمق خياله – مستوى حاضره، ألم تكن مأساة سقراط هي ضريبة إبداعه الذي فاق مستوى التفكير في أرضه عدة عقود؟!!

وهذا هو المفترق بين الفكر الأسطوري والفكر الفلسفي فالفلسفة بحكم طبيعتها تتجاوز دائما نفسها ولا تجمد عند خطواتها الأولى، فلا تقنع حتى بما حققته في مراحلها المتعاقبة مع أساطين الفكر الفلسفي، وإلا كان مصيرها الجمود والفناء ومكانها المتاحف فتستحيل بذلك إلى أساطير محنطة. ففي الفكر الفلسفي لا توجد أفكار قطعية لا تحتمل النقد والشك بل الشك فيها هو أولى الخطوات نحو اليقين ويمكن إضفاء صفة القداسة على أفكار الفلاسفة ونظرياتهم وإلا أصبحت خارج إدارة الزمان، والفلسفة اليوم هي ذلك التساؤل النقدي البناء الذي يضع كل شيء موضع الشك والريبة، ونلمس هذه المراجعة للفكر الفلسفي عندما نولّي نظرنا شطر نقاد الحضارة الغربية أمثال شينجلر وماركيوز وروجي غارودي وليفي شتراوس وغيرهم. ولولا هذه الحركية الفكرية المعاصرة التي جعلت من الفلسفة الغربية موضوعا لتساؤلاتها النقدية لتحولت الفلسفة إلى كليشهات والفلاسفة إلى رموز مطلقة بعيدة عن التفاعل مع الواقع ومشكلاته المستجدة، والنزعة النقدية والتي تتميز بها الفلسفة هي اعتراف ضمني و علني بمحدودية القدرة البشرية عن بلوغ الكمال مهما حققته من انجازات ومهما أنجبت من رواد للفكر الفلسفي على مر تاريخ الفكر.

الهوامش:

[1] جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، دار لكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، بيروت، لبنان، 1978، ج1، ص79.

[2] نفسه.

[3] المرجع نفسه، ص ص79– 80.

[4] فلسفة الأسطورة، أليكسي لوصيف، تر: منذر حلوم، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط الأولى، 2000، اللاذقية– سوريا، ص51.

[5] مُحَمَّد عبد الرحمان مرحبا، **من فلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية**، عويدات للنشر ، مج1، بيروت، لبنان،2007، ص59.

[6]Jaques, Chevalier, Histoire de la Pensé, id, Flammancion, France, 1991, p36.

[7] مُحَمَّد عبد الرحمان مرحبا، مرجع سابق، ص ص61– 62.

[8] جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، دار لكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، بيروت، لبنان، 1978، ج1، ص79.

[9] جميل صليبا، المرجع السابق، ج1، ص79.

[10] المرجع نفسه، ص ص79– 80.

[11] فلسفة الأسطورة، أليكسي لوصيف، تر: منذر حلوم، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط الأولى، 2000، اللاذقية– سوريا، ص51.

[12] مُحَمَّد عبد الرحمان مرحبا، من فلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، عويدات للنشر والطباعة، المجلد الأول، بيروت، لبنان، 2007، ص59.

[13]Jaques, Chevalier, Histoire de la Pensé, id, Flammancion, France, 1991, p36.

[14] مُحَمَّد عبد الرحمان مرحبا، مرجع سابق، ص ص61– 62.

[15] مجدي الجزيزي، الفلسفة بين الأسطورة والتكنولوجيا، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2002، ص23.

[16] المرجع نفسه، ص24.

[17]Cassirer, E: An essay on man Betam, Books, 1970, p p82- 83.

[18] مجدي الجزيزي، مرجع سابق، ص29.

[19] لويس مير، مقدمة في الأنثروبولوجيا، الاجتماعية، تر: شاكر مصطفى سليم، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، 1983، ص282– 283.

[20]Levi Strauss The Savage mind p p, 1- 3.

[21]Cassirer, Ibid, p91.

[22] Françis Bacon, New Organon From Françis Bacon, Aselections, of Works Edite By sidneywachalt, p p326- 530.

[23] مجدي الجزيزي، مرجع سابق، ص ص5– 17.

[24] مُحَمَّد علي أبو ريان، **تاريخ الفكر الفلسفي، الفلسفة اليونانية**، ج1، من طاليس إلى أفلاطون، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1976، ص ص36– 37.

[25] المرجع نفسه، ص39.